كتاب الرافعي في البلاغة

إن « معركة الزقوبيق » البلاغية التي يروى نبأها الصديق المحقق عباس خضر ، قد فتحت أمامنا آفاقا من التفكير ، فنحن نريد أن ندرس علم البلاغة في عصر الذروة دراسة تختلف عن دراسات الزقوبيق وأبي هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني وأبي حيان التوحيدي وغيرهم من أولئك الأعلام الذين أحسنوا إلينا مدى الأجيال ونسينا ذكراهم على الأيام .

على أن « معركة الزقوبيق » صرفت تفكيري إلى أستاذ البلاغة السيد مصطفى صادق الرافعي ، فقد حرص — عليه رضوان الله — أن يبين أن له رأيا في البلاغة سبق به المتقدمين ، إذ يقول في كتاب « إعجاز القرآن » : (نسأل الله تعالى أن يوفقنا لطبع الكتاب الذي نكمل به كتابنا هذا فنبسط فيه من أسرار الآي وإعجازها ما تطلع به الشمس لمن أبصر ولمن عمى فيحسها) — ص ٨٢ .

وقال رحمه الله في كتاب وحي القلم « لنا كلام طويل في فلسفة الأسلوب البياني سنذكره إن شاء الله في كتابنا الجديد (أسرار الإعجاز) » — ص ٢٨٤ ج ٣

ولما تناول الكاتب المحقق الأستاذ محمد سعيد العريان حياة الرافعي تحدث عن كتاب الرافعي المذكور في شيء من التفصيل ، وإلى القارىء بعض ما أورده الأستاذ سعيد العريان في وصف هذا الكتاب :

« ا — يتحدث — يعني الرافعي — في صدر الكتاب عن البلاغة العربية فيردها إلى أصول غير الأصول التي اصطلح عليها علماؤها منذ كانت ، ويضع لها قواعد جديدة وأصولا أخرى .

« ب — ويتحدث في الفصل الثاني عن بلاغة القرآن وأسرار إعجازه ، مسترشداً في ذلك بما قدم في الفصل السابق من قواعد .

وصلت هي إلى الجامعة وقد أخوها يرفع في جهله « بالزقاق » ؟ وفي هذه القصة تصوير رائع لأخلاق النسوة في هذه البيئة .

وفي قصة « آه يا أحمر اللون » يرافق البطل المغنية بعد انتهاء الحفلة إلى المنزل الذي تنام فيه . وقد رأيناه في الحفلة مرتبطا بجماعة من رفاقه ، فكيف تركوه يذهب معها ؟ ومن حيث إن الحادثة في قرية كيف يحدث ذلك دون أن يلفت الأنظار ؟ ويشبه هذا موقفه في قصة « الموتى يتحكمون في الاحياء » من الفتاة القروية التي منحها البطل جنيها لتأتي إليه طائعة ، ويحبها وتحبه ويفكر في زواجها ، ليس هذا التصوير ومالابسه مما يتفق مع طبائع القرويين ، وفي هذه القصة يخبر أبو البطل بأمور غيبية . ولم يفسر الكاتب هذا أي تفسير ، بل جعلها « كرامات » مسلما وأمن في ذلك لجعل البطل المتعلم يتقيدبها !

وفي ختام قصة « من يوميات الرجل الذئب » يقول إنه وجد هذه اليوميات في كراسة تحتوي اعترافات الرجل الذئب ، ثم يقول بعد ذلك مباشرة إن بطل اليوميات إنسان عرفه الكاتب واستخلص نموذجه النفسي ، وليس من إحكام السبك أن يجمع بين هذين الأمرين : العثور على الاعترافات في كراسة ، واستخلاص النموذج النفسي الذي لايكون إلا بكتابة هذه الأعترافات .

وفي قصة « اللحن الأخير » قدم موسيقيا يعزف قصة حبه أمام حبيبته في تسلسل أخاذ ، وهو يرسم في القصة مثلا للموسيقى المعبرة ذات الموضوع ، ولكنه لجأ أخيرا إلى طريقته في افتعال الخاتمة ، فجعل البطل يموت وهو يطلق آخر نغمة من كمانه وحبيبته تلحن به جثة هامدة في مكانها .. وأنا لا أحب للصديق الكريم أن يدأب على قتل أبطاله في آخر القصص ، فهذا غير لائق بفنان متزن مثله ؛ وخير له وللفن الواقعي وللأبطال أنفسهم ، أن يدعهم أحياء ، فلا يضحي بهم في سبيل « الفرقعة » بآخر القصة

عباس خضر

« ج — ويتناول فى الفصل الأخير من الكتاب آيات من القرآن على أسلوب من التفسير يبين سر إعجازها فى اللفظ والمعنى والفكرة العامة ، ويعتبر هذا الفصل الأخير هو لب الكتاب وأساسه . وقد أتم الكتابة — إلى آخر يوم كنت معه — عن بضع وثمانين آية على هذا النسق » — راجع ص ٢٨٩ من « حياة الرافعى » .

ثم يقول الأستاذ سعيد فى موضع آخر من كتابه الفريد « نحسن الظن كثيرا إذا زعمنا أن هذا الكتاب — كتاب الرافعى الذى لم يطبع بعد — الفريد فى موضوعه وفى تأليفه سيلقى من عناية أدباء العربية ما يحملهم على محاولة طبعه فى يوم قريب ... » — ص ١٧٣ من كتاب حياة الرافعى .

وقد انطوى اليوم على موت الرافعى أكثر من ثلاثة عشر عاما وكتابه فى البلاغة لم ير النور ، وأكبر الظن أن أدباء العربية ما برحوا يرجون أن يقوم عنهم بواجب إخراجه صاحب « حياة الرافعى » وإلا فما هذا التباطؤ ؟

إن الذى يقف على طبع كتاب الرافعى لا يخدم ذكرى هذا الرجل العظيم بقدر ما يخدم البلاغة العربية ويضع حداً لهذه المعركة الأدبية الناشبة حول البلاغة العربية فى أزهى عصورها .

ولا مشاحة فى أن للاستاذ سعيد العريان من أشغاله فى الوقت الراهن ما يصرفه عن طبع هذا الكتاب ، وقد فعل الرجل أكثر مما يجب نحو ذكرى عالم معاصر ، ومن ثم فإننا نرجو أن يقدم أبناء الرافعى — حفظهم الله — بشىء لا يخدم ذكرى والدهم فحسب ، وإنما يحفظ لبلاغة العرب رونقها ، فإن عجزوا دون طبع هذا الكتاب ، وأكبر الظن أنهم سوف يعجزون ، فإننا نتوجه إلى الوزير الأديب العالم معالى الدكتور طه حسين بك وقد عاد من سفره ميمون النقيبة مبارك الغدوة والروحة ، نتقدم إليه أن يطبع هذا الكتاب على نفقة وزارة المعارف حتى يتم به النفع وتتم الفائدة المرجوة إن شاء الله .

منصور جاب الله

٣٤ ٥ ٤٧

من رسائل الرافعى — التضمين ليس سماعيا

طنطا فى ٢٧ مايو سنة ١٩٣٠

يا أبا رية

كلمة الشيخ : العلم ما علمك ما أنت ممن معك . استعمل ما لأنها الأوسع فى الدلالة إذ لو قال من لانحصر الامر فى الشخصية، فكأنه يقول ما علمك شخصك فى الاشخاص الذين معك ، أى من انت منهم إن كنت دونهم أو مساويهم أو أعلى الخ وهذا تحديد ناقص للعلم ، ولكنه حين يقول : ماعلمك ما أنت منهم فقد اراه ماهيته وحقيقته وشخصيته وموضعه وكل مايتعلق به باعتباره قطعة من الوجود ، فيكون بذلك دارسا كل حقيقة من سياسية وأدبية وعلمية ومالية الخ ، وهذاهو العلم فى اوسع وادق معانيه على اعتبار أنه دراسة لنواميس الوجود فى تلك القطعة من الوجود التى عبر عنها الشيخ بما ...

واليك اجوبة خرفشتك العجيبة ! فان مثل (أوراق الورد) لو اتفق فيه عشرون غلطة نحوية ولغوية لاتقبل التأويل فان ذلك لا يؤثر فيه لأن صفحة واحدة من هذه المعانى هى ذخيرة للغة العربية

الأفعال تضمن بعضها معانى بعض، فاذا ضمن فعل معنى فعل آخر استعمل استعماله فيتعدى بعن أو على الخ — فتمتاز على الشمس — أى تفضل — وانى أستعمل التضمين كثيراً وأتعمده ، لأنه يجمع بلاغتين. وكان صادق عنبر كلمنى فى ذلك وقال : إن التضمين سماعى فقلت له ، إن الشواهد الموجودة منه تعد بالألوف .

---

(١) كنت قرأت فى هذه العبارة فى أحد الكتب منسوبة إلى الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله قبل أن أقرأها لى تاريخه فسألت شيخنا الرافعى رحمه الله عن سر استعمال هذا الحكيم البليغ (ما) وعدوله عن استعمال (من) وكذلك سألته عن بعض اغلاط نحوية ولغوية عثرت عليها فى كتاب اوراق الورد ولم يكن ذلك عن نقد وانما لابحث فيه الهمة والنشاط كما عرفت فى عادته

وبذلك يخرج عن أن يكون سماعيا ويجوز لنا استعماله للتوسع فى اللغـــة

ومجىء الواو بعد إلا وارد فى القرآن ، فليس هناك أفصح وفصيح الا فى الاسلوب ، فإن كانت الواو تجعل العبارة أجمل وضعت وإن كان حذفها احذفت ؛ ولذلك ترانى استعملها على الوجهين فرقا أثبتها ومرة احذفها .

ولفظة (العادية) صحيحة لأنها منسوبة إلى العادة وهى هنا فقط ، وقد تنبهت لها عند كتابتها وحذفتها فى مواضع أخرى واستعملت مكانها الفاظا غيرها ؛ ولـكنى رأيتها طريفة فى عبارة القطعة البشرية العادية فتركتها ، لأن الغرض تحقير القطعة واعتبارها غير ذات شأن (١) إذ كانت مما تجرى به العادة فليس فيها ما تنفرد به أو تقع موقعاً غريباً ، ومع ذلك تنقلب (خارقة للعادة) فخرقها للعادة يقتضى ذلك التعبير . (واكتشف) صحيحة وأنا استعملها كثيرا وإن لم توجد فى المعاجم ، لأن شأننا بشأن العرب مادمنا نضع على طريقتهم ، ولا قيمة لـكاتب لا يضع فى اللغة أوضاعاً جديدة .

وقوله ، وقامت عذاراها طلقيك كناية عن الأشجار والغصون ، أى متى جاء النسيم استقبلته عذارى الروض وأخذت تتيه وتتمايل . وتسمية الأشجار بعذارى الروض كناية جميلة لأن فى الأشجار روحا نسائية حقيقة كما تجد فى فصل الشجرات . وأفهمت يا أبا رية ؟ هـذه أجوبة الخرفشة وقد كان من حظك أنى نشطت أمس . ألا ترى أثر هذا النشاط ! وهل تدرى من أين جاء النشاط ؟ جاءنى الشيطان من إيطاليا ... والسلام علـكم

مصطفى صادق الرافعى

(١) ص ١٧٣ ـ ١٧٥ من رسائل الرافعى

الى صديقى الدكتور محمد يوسف موسى

تعودت أن أقرأ « الرسـالة » من آخرها : أبدأ بالأزهريات ثم الأدب والفن فى أسبوع ، لولدنا الشات « العجوز » عباس خضر ، الذى أحسده على ضبط أعصابه وحسن تأنيه ؛ ثم أستسلم لهواى فيما بقى من عنوانات .

وجريا على العادة ، بدأت قراءة العدد الأخير من الرسالة ، بمعركة « الفزويني » التى كان لنا — ولا فخر — شرف شهودها فى ميدانها الأول ، منذ أول شرارة ، ثم ما زلنا نتجرع كأسها القذرة المريرة فى غيره من الميادين ! ! فشعرت بأن « كابوسا » من الهم الثقيل جثم على صدرى ، فاختنقت ، وشـعرت بذلة وهوان ، لا يحتملهما إنسان ...

وكان مقالك ـ يا دكتور ـ « إسعافا » وجدت به روحا ، رد روحى ، وأشعرنى واردا من الاطمئنان إلى أن الأزهر لما يزل بخير !

ليت شـعرى ـ يا صديقى الدكتور ـ وحال الأزهر مشهور متعالم ، ما معنى القيام على هذه الحال ؟

ألسنا فى أمة تعتز بماضيها وحاضرها ، وتتطلع إلى مستقبلها ؟ !

أولسنا فى عهد أكرم ملوك مصر على مصر ، وأبعدهم مدى همة ، وأطولهم يدا فى نواحى الاصلاح والعمارة ؟!

أولسنا فى عهد حكومة شعبية حريصة على أن تعمل لغدها ، أكثر مما تعمل ليومها ، فى عناية وإخلاص ؟!

بلى ... فما بال هذا العبث الصارخ إذاً فى هذا الزمن الجاد ؟!

لا جرم أن بقاء الأزهر على حاله الحاضرة عبث أى عبث ، فاما أن يصلح ، وإما أن يغلق . وحسبه ما سجله تاريخه الطويل من مجد ، ومن إجلال ، ومن آثار .

أما بعد ، فاكتب ـ يا دكتورى العظيم ـ ثم اكتب ؛ وضع إسمى المتواضع ، قبل اسمك الكريم ، شريكا ، مسئولا ،